تربية السلوك الوقائي

التربية في الأساس هي لبناء شخصية ذات فعل فاعل مقبول ومتجانس مع مجتمعه وغرس مبادئ وسلوكيات يستقيها الفرد مع تطور مراحل عمره تستيقنها ذاته ليمارس قيمها وأخلاقياتها تتضح بها تصرفاته قولاً وتلازمه عملاً .وفي هذا السياق تأتي السلامة سلوكًا ضمن محتوى السلوكيات التي ينبغي أنْ يتربى عليها الفرد منذ نعومة أظفاره مثل أي سلوك ومهارات يتعلمها بداية في البيت في وقت مبكر لتترسخ فيه عادة سلوكية يتعودها ليقي نفسه ومن حوله مخاطر الحوادث ويتقي مواطن الخطر .

الإنسان بطبعه يخاف من المجهول، فهو يفزع لمجرد الإحساس بوجود خطر ، مما يُولد حالة غير عادية في نفسه حيث تهتز حالة الطمأنينة لتستفزه تحسُّبًا لما قد يقع فيه تجعله مترقبًا لا يدري أين ومتى سيحيط به حدث مفاجيء لا يأمن فيه على نفسه ولم يتوقع أنْ يُلمّ به طارئٌ يغيب راحته ويزعزع سكينته وسكناه ، والسبب أن السلامة غير واردة في قاموسه ولم يتربَّ عليها كسلوك فكانت في سلة المهملات حتى دقَّ جرسها وطرق طارقها يتذكر المرء قيمة السلامة .

وإذا ما تبنينا السلامة كمفهوم تربوي يبدأ من البيت ينتهجها سلوكًا يعتاد عليه الأبناء من وقت مبكر سلوك عادة؛ ليسلكوا سلوك السلامة من الخطر والوقاية من الحوادث ؛ لنؤسس فيهم مفهوم السلامة والحفاظ على مقومات الحياة، فتربية السلوك الوقائي تأصيل السلامة وتأهيل النشء على المحافظة على أرواحهم ومن

حولهم ليتعودوا منذ الصِّغَر استشعار الخطر؛ لكي يتحول مع الوقت سلوك عادة وتوليد حسٍّ وقائي مما يهدد حياتهم أو يُوقعهم في مأزق الحوادث.

فلا يختلف اثنان على أن السلامة المنزلية تستأثر بقدر كبير من الاهتمام، وتستحوذ على مساحة واسعة من الهواجس بما تُشكِّله من قيمة يستودعون فيها نفوسهم وخصوصيات أحوالهم، وراحة البال، وهدوء السكينة، والأمان النفسي في منزل آمن من ضيق وسالم من زعزعة، وهو بهذا يأتي في صلب المقاصد الشرعية مضبوطةً بجملة من الضوابط التي تحفظ ضرورات الحياة ومقاصدها المرسلة التي تحفظ الكيان الإنساني على مختلف أوجه الحياة وتداولاتها، وفي مضمونها الحماية مما يعرض للنفس والمال والعيال ومكتسبات الحياة وأقوات المعيشة بما تضفي أمانًا وسلامًا، من كل ما يقوض الإنسان أو ينغص راحته ويهدد أمانه أو يحد من نشاطه ويعوق حركته ، فلا يستوي السكن في منزل لا يأمن فيه على نفسه أو أحواله.

وفي هذا كان لا بد أنْ يعوِّد المرء نفسه على رعاية سلامة نطاقات تواجده الذي يأتي المنزل من ضمن أهم النطاقات الأحق بالرعاية، وأنْ يربي عليها أهله وأبناءه وذويه، يجعل السلامة في سلم اهتماماتهم ويجعلها مبدأ من مبادىء سلوكياتهم.

إن تربية النشء على هذا النهج تفتح أمامهم مجالًا للعيش الآمن وتصبح سلوك عادة يعتادون عليها منذ الصِّغر تكبر معهم مع تدرج العمر، إذ إن الملاحظ أن جيلنا وجيل منْ سبقونا ، لم نتعوّد على الأخذ بمبدأ السلامة بما يكفي، لذلك بقيت في وضع ثانوي؛ لأننا لم تُربَّ فينا تربية سلوكية نشأنا لا نعطيها اعتبارًا ؛ فلم نُربَّ

عليها حتى وإنْ ولجنا حضارة العصر بزخمها التقني الذي نأخذه دون حذر، ونقتنيه بلا تحسُّب.

فالكهرباء ذات منافع جمة ننعم بها ، لكن لا يخطر على بالنا أن نتوقى من مخاطرها بما فيه الكفاية ، والغاز هذه الوسيلة الشرسة لم ندرك شراستها لنحيطها بما يقينا منها ، ولك أنْ تعدد الكثير والكثير مما يدخل حياتنا، نأخذه على ظاهره ونغفل عن مساوئه وأخطاره الأليمة ، وما ذلك إلا لأننا لم نُربَّ تربية أمانية في وقت مبكر؛ لتكون هدفًا وملحوظ احتراز.

ولنا أنْ نتفكَّر في سؤال ألقيته على طلبتي في إحدى حلقات الدروس عن السلامة، فكان السؤال بسيطًا جدًّا لكنه غائب عن الأذهان.

قلت: عندما يقتني أحدنا جهازًا جديدًا (فرنًا أو تلفزيونًا أو سخانًا)..إلخ. هل نفكر في قراءة المنشور المصاحب له ؛ لمعرفة محاذيره وطرق استعماله وتعليمات تشغيله، وما مدى خطورته؟ وما سلبياته وإيجابياته؟ واتباع الإرشادات المكتوبة؟!

كان السؤال فجائيًّا فلا أحدَ يعير هذا أدنى اهتمام مع أن الأمر بسيط. أحدهم تجاوب مُعقبًا قال: إن التعليمات في تلك غالبًا ما تكون بلغة أجنبية، وليس كل شخص يجيدها. فماذا يعمل؟ قلت: ملاحظة جيدة ، لكن الغالب الآن أنها مترجمةٌ باللغة العربية وإنْ لم يكُنْ كلها فبعضها.

فكررت السؤال: هل نقرؤها؟ جاءت الإجابات خجولة ، فالقليل الذي يكلف نفسه مجرد قراءتها، وبعضهم يهملها. فإلى ماذا نعزو ذلك؟ أليس إلى انخفاض جرعة مطلب الأمان؟ حتى وإنْ كنا ننزع إليه بالفطرة لكننا لم نفعل أو ننبه غريزتها تنبيهًا تربويًّا وتعليميًّا.

إن عدم تبني السلامة وترسيخها منذ الصغر، فإنْ لم يكُنْ اهتمامنا بالوقاية من المخاطر وترسيخها من الصِّغر لتستقر في الأذهان وتعيها الأفئدة وإلا سينشأ مجتمع تلفُّه أميَّة السلامة، وتجانبه سيل الرشد الوقائي من أذى ومضار وآفات ومخاطر وحرائق وملمات وأهوال الحوادث المختلفة الملهكة أو دون المهلكة المورثة لعذابات وخلق أزمات وإزهاق أرواح تخنقها حسرات وتعمق أسافات وخسارات.

كل ذلك ينمو تحت جناح الجهل بمحاذير السلامة وقصور تثمين علو شأنها كونها غلافُ حياتنا ورداء عيشنا بدونها تتلبسنا الأخطار وتتخطفنا الحوادث وهي حالة إنْ جاز التعبير يمكن وصفها بـــ "أميَّة السلامة" أو قصور معرفة بماهيتها والوعي بمتطلباتها ؛ ذلك أن حياتنا قائمة على سلامتنا ومعيشتنا مرتكزة على قوامها، فإنْ لم نرعَها حقَّ رعايتها ونُعطها وافي حقها فإننا كسفينة نسير في عرض البحر في مهب الريح لا ندري متى تغرقها العاصفة إنْ لم نجد لها ما يصوِّب مسارها ويحفظ توازنها.

مما يفترض أنْ يتبنى الفرد السلامة كما يتبنى هواياته ومشارب رفاهيته ولهوه ولعبه وصداقاته وأنْ يصرف لها شيئًا من اهتمامه؛ تمجيدًا للنفس البشرية وصيانةً للروح التي بين جنبيه وما وهبه الله من نِعَم ؛ ليُوليها عنايته فالجامع بين كل هذه الأصناف من الحوادث هو فقدان السلامة.

أميَّة السلامة

نشر مفهوم السلامة بين الأفراد هو أفضل طريقة لإشاعة ترسيخها ، يتجرعها الشخص منذ نعومه أظافره في بيته؛ باعتبار أن البيت هو المدرسة الأولى، يهيِّئ الطفل للمرحلة التعليمية القادمة في المدرسة التي يتلقى فيها علومه، وأنماط تربوية في حضنها تذكو سلوكيات السلامة والوقاية من المخاطر التي تبدأ في البيت، وتذكو في المدرسة، كما تتبلور في المجتمع من خلال المنتديات والدوريات والاجتماعات والمجالسات أو أي ملتقيات على مستوى الفرد مع الجماعة أو على مستوى جماعة بأخرى، وهكذا يتعزز رسوخها واستيعابها الذي يستقر في النفس؛ ليستيقنه الفرد تلقائيًّا.

وإذا كانت السلامة تدخل في أوجه مختلفة من حياة البشر وجوانب متعددة في مكانه وتنقله وفي ضروب شؤونه وأقواته ومعاشه ومبتغى حياته، ذلك تعددية سلامية نوعية ، فهناك سلامة النفس وسلامة المال وسلامة العمل وسلامة السفر وسلامة المكان والإقامة والحركات والنشاطات الاجتماعية والأعمال المهنية والصناعية الحرفية والاقتصادية وكل ما بدا لك من أوجه الحياة.

فما من جانب إلاّ يحتاج إلى ما يسلمها من عكسها ؛ حفظًا من خطر، واتقاءً من حوادث، وتصوناً من تلف، وتحوّطًا من مرض، وابتعادًا عن مهددات المقلقات أيًّا كان نوعها، وأينما كان مكانها في البيت أو في مقر العمل أو وسائل النقل والأغذية المصنّعة والمأكولات الفاسدة وما شاكلها... إلخ.

فكم من أب أرشد أبناءه إلى اتباع إرشادات السلامة! وكم من أب نبَّه أهل بيته إلى مخاطر الغاز! وكم من ربَّة بيت تعرف كيف تتصرف تصرفًا أوليًّا في حال انتشرتْ رائحة غاز في مطبخها! وكم من شخص ذكَّر أهله ماذا يفعلون إذا شموا رائحة احتراق أسلاك كهربائية! وكم! وكم! ولك أنْ تذهب ما شئتَ في شأن المخاطر المنزلية الجمة، وإلا فالمخاطر بالكوم والحوادث بالكم.

إذن: فالتربية الأمانية إنْ لم تكُنْ معدومة، فهي شبه معدومة، تُطوقنا المخاطر من جوانب شتى ، وحياتنا على أكف الخطر إلا ما شاء الله، فقد يجد المرءُ نفسه في قلب الحدث بغتة وفي عين الواقعة مع أن مؤشراته كانت تلوح أمام أعيننا، الخطر يمسي ويصبح محيطنا ونحن عنه في غياب .

وهنا نود أن نخلص: إلى أنه إنْ لم نتربَّ منذ الصغر على التحوط من الخطر فلا يجب أنْ نتوارث إهماله بل علينا تربية أبنائنا وزرعه في ذواتهم؛ فالمخاطر من حولنا عديدة ، وما ستأتي به الأيام أكثر خطرًا ، ومتطلب الوقاية لا يأتي إلا بالتحذير والاستحثاث وجعلها هدفًا حياتيًّا لا تقوم الحياة بدونها، وإنْ لم يكنْ ذلك فسوف ينطبق علينا: فاقد الشيء لا يعطيه. فإن فقدنا أساليب التحوّط خيَّم الخطر ووقعت الحوادث تلك إذا أمية السلامة.